لحن الغدير

كَانَتْ فَتَاةٌ يَتِيمَةٌ عَرْجَاءُ تَعِيشُ مَعَ جَدَّتِهَا الْعَجُوزِ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ مُتَهَدِّمٍ فِي مَعْزِلٍ عَنْ سَائِرِ الْبُيُوتِ . وَكَانَا فَقِيرَيْنِ لَا يَمْلِكَانِ شَيْئًا . وَكَانَتِ الْجَدَّةُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِهَا وَكِبَرِ سِنِّهَا تَخْرُجُ كُلَّ صَبَاحٍ تَمْشِي فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ تَارِكَةً الْفَتَاةَ الْعَاجِزَةَ الْمِسْكِينَةَ وَحِيدَةً فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الْمُوحِشِ .

وَلَمْ يَكُنْ لَدَى الْفَتَاةِ لُعَبٌ تَلْهُو بِهَا ، وَلَا كُتُبٌ تَتَسَلَّى بِمُطَالَعَتِهَا ، وَقَطْعِ سَاعَاتِ النَّهَارِ الْمُمِلَّةِ الطَّوِيلَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا غَيْرُ صَدِيقٍ صَغِيرٍ يُشَارِكُهَا فِي هَذِهِ الْعُزْلَةِ كَمَا يُشَارِكُهَا فِي غِذَائِهَا النَّذْرِ الْيَسِيرِ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الصَّدِيقُ سِوَى طَائِرٍ أَسْوَدَ صَغِيرٍ ، كَانَ يُلَازِمُ الْفَتَاةَ الْعَرْجَاءَ طُولَ النَّهَارِ ، تَارَةً يَقْفِزُ عَلَى رَأْسِهَا وَكَتِفَيْهَا ، وَتَارَةً يَقِفُ عَلَى كَفِّهَا يَمْسَحُهُ بِمِنْقَارِهِ .

وَلَمْ تَكُنِ الطُّيُورُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ الْغَابِرِ قَادِرَةً عَلَى التَّغْرِيدِ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ ، وَكَانَ بَعْضُهَا يَمْتَازُ بِأَلْوَانٍ جَمِيلَةٍ جَذَّابَةٍ يَزْهُو بِهَا عَلَى الطَّائِرِ الْأَسْوَدِ الْمِسْكِينِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ حَظٌّ مِنْهَا ؛ فَكَانَ لِذَلِكَ يَأْنَسُ إِلَى الْفَتَاةِ الْعَرْجَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْنَسُ إِلَى بَنِي جِنْسِهِ مِنَ الطُّيُورِ الَّتِي كَانَتْ تَأْنَفُ مِنْ مُخَالَطَتِهِ . وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَتِ الْفَتَاةُ لِجَدَّتِهَا : « كَمْ أُحِبُّ هَذَا الطَّائِرَ الْوَدِيعَ وَوَدِدْتُ لَوْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَتِهِ التَّغْرِيدُ ... إِذًا لَزَادَتْ سَعَادَتِي بِهِ وَلَأَدْخَلَ تَغْرِيدُهُ السُّرُورَ إِلَى قَلْبِي ! » فَتَبَسَّمَتِ الْعَجُوزُ ضَاحِكَةً مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَتْ : « مَا أَغْرَبَ مَا تَتَمَنَّيْنَ يَا بُنَيَّتِي ، وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُغَرِّدَ الطُّيُورُ ؟ »

وكان الطائر الاسود يقفز على رأس العرجاء وكتفها ...

وَلٰكِنَّ الطَّائِرَ الصَّغِيرَ الَّذِي سَمِعَ ذٰلِكَ الْحَدِيثَ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْكَآبَةُ وَوَدَّ لَوْ أَمْكَنَهُ تَحْقِيقُ أُمْنِيَّةِ الْفَتَاةِ وَإِسْعَادُهَا .

وَظَلَّ الطَّائِرُ يُفَكِّرُ طُولَ يَوْمِهِ حَتَّى إِذَا آذَنَتِ الشَّمْسُ بِالْمَغِيبِ كَانَ قَدْ أَجْمَعَ أَمْرَهُ . لَقَدْ صَحَّ عَزْمُهُ عَلَى أَنْ يُغَادِرَ ذٰلِكَ الْمَكَانَ وَأَنْ يَطِيرَ بَاحِثًا فِي أَنْحَاءِ الْفَضَاءِ الرَّحِيبِ عَنْ أُغْنِيَةٍ جَمِيلَةٍ يَحْفَظُهَا ثُمَّ يَعُودُ فَيُرَدِّدُهَا لِصَدِيقَتِهِ الْعَرْجَاءِ . وَانْتَظَرَ حَتَّى نَامَتِ الْفَتَاةُ ثُمَّ انْطَلَقَ طَائِرًا يَحْدُوهُ الْأَمَلُ وَالرَّجَاءُ .

وَفِي صَبَاحِ يَوْمٍ جَمِيلٍ مُشْمِسٍ ، بَيْنَمَا كَانَ يَطِيرُ فَوْقَ أَرْضٍ مَكْسُوَّةٍ بِالْحَشَائِشِ الْخَضْرَاءِ وَالْأَزْهَارِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ الْبَهِيجَةِ ، إِذْ طَرَقَ سَمْعَهُ نَغَمٌ شَجِيٌّ ، فَاسْتَمْهَلَ فِي طَيَرَانِهِ وَأَخَذَ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ مُقْتَرِبًا مِنْ مَصْدَرِ الصَّوْتِ . نَعَمْ هٰذَا نَغَمٌ عَذْبٌ حَنُونٌ سَأُحَاوِلُ أَنْ أَحْفَظَهُ ، وَسَتَطْرَبُ لَهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةُ . إِنَّهُ سَيُصَوِّرُ لَهَا خَرِيرَ الْمَاءِ الْمُتَدَفِّقِ وَهَفْهَفَةَ النَّسِيمِ يُدَاعِبُ الْأَزْهَارَ ، وَلٰكِنْ مَنْ يَا تُرَى صَاحِبُ هٰذَا اللَّحْنِ الْجَمِيلِ ؟ مَنْ غَيْرُ الْغَدِيرِ بِعَيْنِهِ وَمَنْ غَيْرُ النَّسِيمِ الْعَلِيلِ ؟ !

وَحَطَّ الطَّائِرُ فَوْقَ غُصْنٍ مُتَدَلٍّ فَوْقَ الْغَدِيرِ وَأَخَذَ يَنْصِتُ وَيَنْصِتُ وَيُنْصِتُ ، ثُمَّ حَاوَلَ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ أَنْ يُغَنِّيَ ذٰلِكَ اللَّحْنَ الْجَمِيلَ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةُ الْيَأْسِ ، فَانْحَدَرَتْ دُمُوعُهُ الْبَرَّاقَةُ وَاخْتَلَطَتْ بِمَاءِ الْغَدِيرِ الْمُتَدَفِّقِ .

وَانْتَفَضَ الطَّائِرُ حِينَ سَمِعَ صَوْتًا يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ ، وَالْتَفَتَ فَأَبْصَرَ عَلَى الشَّجَرَةِ الْمُقَابِلَةِ مَلَكًا لَهُ جَنَاحَانِ يُرَفْرِفُ بِهِمَا فَوْقَ الْأَغْصَانِ ، وَيَقُولُ : « لَا تَبْتَئِسْ أَيُّهَا الصَّغِيرُ ، إِنِّي مَلَكُ الْأَغَانِي ، وَأَعْلَمُ مَا جِئْتَ مِنْ أَجْلِهِ وَأَعْلَمُ حَدِيثَ الْفَتَاةِ الْعَرْجَاءِ . وَمِنْ أَجْلِهَا سَأُعَلِّمُكَ لَحْنَ الْغَدِيرِ ، وَسَأَمْنَحُكَ فَوْقَ ذٰلِكَ الْقُدْرَةَ عَلَى النُّطْقِ وَالْكَلَامِ حَتَّى إِذَا مَا عُدْتَ إِلَى صَاحِبَتِكَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُصَّ عَلَيْهَا حَدِيثَ رِحْلَتِكَ . »

وَمَا أَنْ قَالَ الْمَلَكُ ذٰلِكَ حَتَّى اخْتَفَى ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَحَسَّ الطَّائِرُ الصَّغِيرُ بِلَحْنِ الْغَدِيرِ يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ فِي سُهُولَةٍ وَعُذُوبَةٍ . وَعَادَ الطَّائِرُ إِلَى صَاحِبَتِهِ يُغَرِّدُ لَهَا فَيُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَى قَلْبِهَا وَيُحَدِّثُهَا فَتَتَسَلَّى بِحَدِيثِهِ الشَّائِقِ حَتَّى تَغْمِضَ جَفْنَهَا وَتَنَامَ .

وَقَطَعَ مَلَكُ الْأَغَانِي عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا أَنْ يَهَبَ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّغْرِيدِ لِكُلِّ طَائِرٍ طَيِّبِ الْقَلْبِ مُحِبٍّ لِلْخَيْرِ . لِهٰذَا غَرَّدَتِ الطُّيُورُ وَلَا زَالَتْ تُغَرِّدُ إِلَى الْيَوْمِ .